الفصل الرابع

توسع آشور

ندخل فترة أغنى بكثير بالنسبة للنقوش التاريخية، والملك المقصود هو (حدد نيراري) الأول (١٣٠٧ – ١٢٧٥) وقد كنا نسَبْنا الفضل لآشور أباليت باتخاذ الخطوات الأولى التي كانت سوف تؤدي إلى نشوء وارتقاء شأن الإمبراطورية الآشورية، ولقد كانت منجزات (حدد نيراري) كافية لجعل بعض المؤرخين يضعونه في دور مؤسس الإمبراطورية، وهذه النقطة تدعو للجدل ولكن من المؤكد أن حدد نيراري كان شخصية رئيسية بالنسبة للتوسع الآشوري.

حدد نيراري الأول

لقد وصف حدد نيراري نفسه بقاهر الجماعات المتوحشة من قبائل الكاشايت والكوتيان واللولومونيان والسوبريان، وكانت كلمة الكاشايت تعني عادة البابلين في هذا الوقت (من المتحمل هنا بالإشارة إلى الحدود الجنوبية الشرقية لآشور) وكان الآخرون هم الشعوب الجبلية في زاغروس وطوروس الشرقية ابتداءً من جنوب كردستان إلى شمال غرب آشور، وأما في المناطق الأخرى فقد حدد حدد نيراري فتوحاته بمصطلحات أرضية مثلاً من بلدة (لوبدي) وأرض رابيكو إلى ايلوهات، وكانت لوبدي قرب كركوك وهي قلعة تشير إلى الحدود في الغرب.

وأما ايلوهات فلم يتحدد موقعها، وقد ذكر بعضهم أنها واقعة إلى الشمال من ديار بكر، ولكن يظهر أنها كانت إلى الجنوب من ذلك الموقع، وتقع ديار بكر إلى الشمال من هضبة طور عابدين، بينما هناك ثلاث بلدات سماها حدد نيراري كانت بالتأكيد إلى الجنوب من طور عابدين، وهذا يوحي أن حدد نيراري كان يعامل طور عابدين كحدود يسيطر عليها، ونجد الآن أن الجانب الجنوبي من هضبة طور عابدين يرتفع فوق السهل، وهناك قلعة بارزة واقعة فوق تلة (وتدعى الآن ماردين) وهي تحرس أحد الممرات، وابتغاء للأمان فإن أي شعب يحتل السهل

إلى الجنوب من طور عابدين سوف يحاول الاستيلاء على ماردين، وهكذا من الممكن أن تكون نقطة الحدود (ايلوهات) التي ذكرها حدد نيراري، هي ماردين بالذات.

ولقد اشتملت فتوحات حدد نيراري جنوب طور عابدين عدة مدن ميتانية بينها المدينة الميتانية العاصمة وهي واشوكاني (أوشوكاني) وهنا بدأت العلاقات بالتوتر ما بين ميتاني وآشور مع بقية مملكة ميتاني التي يشار إليها الآن باسم هانيجالبات أو (هاليجالبات) التي ادعى الآشوريون أنها خاضعة لهم، وعندما أظهر ملك هانيجالبات العداوة لآشور، عمد (حدد نيراري) إلى اعتقاله ثم جلبه إلى مدينة آشور حيث أقسم بأن يكون تابعاً، وأجبر على إرسال جزية سنوية، ولكن هذه التبعية ضعفت واستغرق توقف هانيجالبات عن المقاومة وقتاً طويلاً، ولكن الملك الذي تلاه أعلن عصيانه وطلب المساعدة العسكرية من الجِيش وهي القوة الرئيسية في المنطقة، إلا أن الجيشين بقوا محايدين في هذا الظرف وبذلك سمحوا لحدد نيراري بالتغلب على قوى هانيجالبات وضم بلاده إلى آشور، ولقد تشجّع حدد نيراري بما لمسه من حياد الحثيين فبدأ بإقامة علاقات سياسية مع ملك الحثيين القوي وتكلم عن الأخوة بينهما.

ولكن الملك الحثي لم يكن متأثراً بالعظمة الآشورية فعامل حدد نيراري بازدراء فكتب له يقول:

((لماذا تود أن أكتب لك حول الأخوة؟ فهل أنت وأنا خُلقنا من نفس الأم؟)).

وبعد أن أصبحت هانيجالبات تحت قبضته أصبح حدد نيراري الآن مسيطراً على المنطقة بأجمعها حتى المنعطف الكبير للفرات، وهو من الحدود الطبيعية الرئيسية، وإلى الغرب والشمال من هذه المنطقة كانت تقع الإمبراطورية الحثية، وهكذا فقد أصبحت المنطقة الغربية والشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تحت السيطرة الآشورية حتى المنطقة، حيث يقترب هذان النهران العظيمان من بعضهما في الشمال، وقد ساعد النهران على جعل هذه المنطقة منيعة ولكنهما أعطيا هذه المنطقة أهمية أخرى، إذ نظراً لأن هذين النهرين يحددان الطرق التجارية الرئيسية

في الشرق الأدنى القديم، لهذا أصبحت آشور الآن تمتلك السيطرة على هذه الطرق، مع أننا ينبغي أن نفترض أن أجزاء هذه الطرق التي تسير من غرب الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تحت سيطرة أيادٍ صديقة، وخوفاً من أن يحدث العكس بالنسبة لهذه المناطق فقد كان هذا سبباً رئيسياً للتوسع خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأما في الجنوب وإلى الشرق من نهر دجلة فقد كان هناك ثلاثة حدود محتملة ما بين آشور وبابل ابتداء من الشمال إلى الجنوب، وكانت هذه الحدود الثلاثة منحصرة ما بين الروافد الثلاثة وهي الزاب الأدنى والدهم وديالا، ولقد شهدت هذه الحدود تصادمات عديدة خلال التاريخ الآشوري البابلي.

وقد عكس الخط الذي اتخذته هذه الحدود الحالات النسبية الراهنة للمملكتين، إذ إنه وبعد المصادمات الحدودية استطاع حدد نيراري أن يُملي اتفاقاً مع إحدى مناطق الحدود في خط يتبع نهر ديالا من الزاغروس وتلالها حتى نهر دجلة، وقد ظهرت قصائد بطولية وهي إحدى الأعمال الأدبية الآشورية الأولى ألفت للاحتفاء بالنصر الآشوري.

ولكن بابل أيضاً قد أحرزت نصراً ظلَّ وقتاً طويلاً، إذ إنه ومنذ هذا الزمن أصبح هناك تزايد مرموق لنفوذ الثقافة البابلية في آشور فقد أصبح أنليل الذي كان يتمتع بالسيادة في بابل تلك السيادة التي كانت تنتمي إلى الإله آشور في دولة آشور، هذه السيادة للاله أنليل أصبحت واضحة وبارزة في آشور، ولكن كلاً من حدد نيراري وابنه شلمناصر الأول أطلقا على أنفسهما لقباً رئيسياً وهو حاكم الإله أنليل.

وهذا وإن كتابة أول قصيدة آشورية بطولية ذكرت أعلاه ما هي إلا علامة أخرى لوجود النفوذ البابلي في آشور، وأيضاً استعمال اللهجة البابلية (وليس الآشورية) عند كتابة النقوش الملكية الآشورية وهذه اللهجة البابلية قد ازداد عددها ابتداءً من زمن شلمناصر الأول.

شلمناصر الأول

يعود شلمناصر الأول (١٢٧٤ – ١٢٤٥) ق.م وهو ابن حدد نيراري إلى فترة قدر لها أن تلعب دوراً مرموقاً في الشؤون الآشورية خلال القرون الخمسة التالية، فنحن نقابل في نقوشه كلمة يورواتري الذي تغير إلى يوراتري، ففي أوائل الألف كانت يورواتري تدل على مملكة قوية متمركزة على بحيرة (فان) شرقي تركيا، وكانت هذه قادرة أن تتحدى الإمبراطورية الآشورية نفسها، ولكن وفي أثناء حكم شلمناصر كانت هذه المملكة تتألف من اتحاد شعوب واقعة في جبال أرمينيا.

ويذكر شلمناصر ثماني أراضٍ جبلية تؤلف اسم يورواتري، ومع أن هذه لم تصبح مملكة واحدة إلا أنها كانت امتداداً واسعاً من السكان المستفيدين نظراً لأن شلمناصر يتكلم عن تخريبه إحدى وخمسين مدينة من مدنهم، حيث يشير المصطلح الآخر إلى أي مركز سكني ابتداءً من القرية حتى المدينة الرئيسية..

وطبقاً لأفضل الترجمات الحديثة يقول شلمناصر: إنه قد هاجم شعب يورواتري لأنهم تمردوا. والترجمة تدل أن شلمناصر كان يظن أن هذا الشعب من أتباعه الخاضعين له، ولكن الفعل يستعمل غالباً للدلالة على معنى محايد عن أولئك الذين يعبرون الحدود، ويبدو أنه من المحتمل أن هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإن بعض شعب يورواتري كانوا يحاولون الاندفاع جنوباً إلى حيث كان شلمناصر يدعي بأنها أرض آشورية، وهكذا تقدم شلمناصر لمهاجمتهم وصدهم حفاظاً على الأمن القومي.

ويخبرنا شلمناصر أنه قد سجل بعض شباب يورواتري جنوداً في خدمته، وهذا يعني: وجهاً جديداً في السياسة الآشورية، إذ إنه ابتداءً من هذا الزمن أصبحت تنقل الشعوب المغلوبة على مقياس أصبح واسعاً حقاً، وهذا العمل يتطلب بعض التفسير، فهناك تفسير مألوف وهو أن الهدف الرئيسي للآشوريين هو إسكان الشعوب المغلوبة ذات الميول التمردية حيث لا يستطيعون القيام بأي إزعاج لاسيما إذا سكنوا بين ظهر أي مجموعة عرقية غريبة.

ومن الممكن أن يكون هذا سبباً وجيهاً لهذه السياسة، ولكن من الصعب أن يكون سبباً وتفسيراً كاملاً، فلو كان الأمن العسكري هو الاعتبار الرئيسي فإن الآشوريين الذين لم يكونوا شعباً متأنقاً، فإن باستطاعتهم إحراز هذه الغاية عن طريق القتل الجماعي، ولذلك فإنه من الممكن أن يكون الحافز لهذه العملية من الإبعاد والتهجير الجماعي هو حافز إقتصادي.

وبعد التوسع في داخل هانيجالبات (وهي أساس ميتاني القديمة) فقد كسبت آشور أراضيَ جديدة واسعة لا تمتلك صفات زراعية مزدهرة فحسب، بل بلدات ومدن ناجحة وهذه الأخيرة قد وجد فيها صناعات مزدهرة متعددة من أعمال معدنية، ونشر الخشب، وخراطة بالمخرطة، والبناء، وصناعة الجواهر وهلمَّ جرًّا، وقد ألف أصحاب الحرف هؤلاء مجموعة من المختصين يمكن استخدامها لمصلحة آشور.

هذا وإن القوة البشرية الإضافية التي أصبحت متوفرة حالما استولت آشور على مناطق أخرى إلى الشمال، سمحت بالاستثمار الواسع للأراضي الآشورية الزراعية المنتجة، وإن تنفيذ مثل هذه الإجراءات اقتضى حدوث حركات وتنقلات على مقياس واسع للسكان، ويذكر شلمناصر نفسه عن تهجير (١٤,٤٠٠) من الشعب من هانيجالبات، ومن الممكن أن نضيف أنه ذكر قضية إحداث العمى بالنسبة لهؤلاء المهجرين، ولكننا نظن أن العمى كان لعين واحدة فقط، وإلا فإن هؤلاء العميان سوف يصبحون عبئاً اقتصادياً أكثر منهم مصادر قوة نافعة.

ولم يذكر شلمناصر ما فعله بأولئك الأسرى، ولكن هناك بعض الوثائق الإدارية التي صدرت في زمن شلمناصر أو خلفائه أعطت فكرة عما حدث لهؤلاء من أسرى الحرب من المناطق الأخرى، وهذه النصوص تذكر وجود حصص من الإعاشة من الحبوب والصوف، وهذا الأخير كان لتزويد العمال بمادةٍ خام لصنع ملابسهم.

وهناك نص يذكر حصص الإعاشة من القصر (وهذا يعني: رئاسة الإدارة) وهو يعين شخصية المستلمين، وكان هناك (٧٢٠) أسيراً من أراضي شوبرو

obeikandi.com

مقسمين في أربع مجموعات، كل مجموعة تحت إشراف مشرف آشوري مع وجود رئيس مسؤول عن الجميع، وكان هناك (٩٩) أسيراً من أراضي نياري و (١٧٤) أسيراً من كادموخ تحت إشراف موظفين آشوريين، وكانت هذه الأراضي في المناطق الشمالية.

وكانت كادموخ في المنطقة ما بين الدجلة وطور عابدين، وكانت شويرو داخل أو شمال طور عابدين، كانت نياري تقع إلى الشمال من نهر دجلة وإلى الغرب من بحيرة (فان).

ومع أننا لا نعلم الأعمال التي كان هؤلاء يكلفون بعملها، إلا أننا من الممكن أن نستنتج ذلك، ففي النص يذكر وجود إعاشة (على مقياس أكثر كرماً) لبعض الآشوريين الذين يعملون كبنائين، وإن شمول البنائين الآشوريين يعني: إنهم كانوا مهندسين معماريين يشرفون على أعمال البناء بينما كان يعمل الأجانب كعمال بناء، وينبغي أن نلاحظ أن مجموع العمال الأجانب بالإضافة إلى سبعة موظفين آشوريين مسؤولين عنهم فإن المجموع النهائي يبلغ الألف.

وإذا عُدنا للتاريخ السياسي نجد أنه وخلال حكم شلمناصر كان هناك استئناف لأعمال الشغب في هانيجلبات، فقد ثارت تلك المنطقة بقيادة ملكها التابع لآشور، وهكذا انقض شلمناصر على تلك المنطقة طبقاً للأسلوب الذي اتبعه والده، ولكن ظهر عامل جديد الآن في هذه القضية والوضع وهو أننا نسمع الآن عن شعب يدعى (أخلامو) قد دعموا وساعدوا الهانجالباتيين، وهؤلاء الأخلامو كانو حلفاء للآراميين وهم موجة جديدة من الساميين أتوا من الصحراء خلال الألف الثاني، وقد قُدر لهم أن يقوموا بصدمات وتأثيرات كبيرة في الشرق الأدنى.

وفي هذه المناسبة استلم المتمردون الهانيجالبات مساعدات من الحثيين وكانت هذه المساعدات لا تشمل المساعدات العسكرية ولكنها اشتملت على عقوبات اقتصادية ضد الآشوريين، ففي إحدى المعاهدات مع إحدى الدول الخاضعة وهي دولة أمورو في سورية، يقول الملك الحثي:

obeikandi.com

((لا ينبغي لأي تاجر من تجاركم أن يذهب إلى بلاد آشور، ولا ينبغي أن تسمحوا لأي تاجر منهم أن يدخل بلادكم)).

وكان الحثيون لا يزالون هم القوة العالمية الرئيسية، ولكن الأهمية المتنامية لآشور قد اعتُرف بها الآن، وعدا عن الاحتكاك فإن كلاً من شلمناصر وخليفته (توكولتي نينوترا) قد قاما بمحادثات دبلوماسية مع الملك الحثي وذلك كما تدل بعض القطع من رسائلهم، ولم يعد الملك الحثي يهزأ بنظيره الآشوري كما حدث في زمن آشور أباليت، ولكنه كان يطلق عليه اسم الأخ المساوي له.

إن التطورات التي حدثت في زمن شلمناصر تقدم لنا الفرصة السانحة للمس طبيعة الملكية الآشورية، ومنذ البداية كنا نتكلم عن الحكام الآشوريين كملوك، ولكن الأشخاص المشار إليهم كانوا غالباً ما يستعملون ألقاباً أخرى، وكانوا يظنون أنفسهم تقريباً ملوكاً، فقد كان الملك الحقيقي للبلاد هو الإله آشور.

ومن وجهة دينية كان الحاكم البشري هو نائب الملك الإلهي، ومع ذلك وبسبب ذلك كانت قوته تعد أكثر من قوة بشرية نظراً لأنه كان يعمل نائباً عن الإله، ونحن نلاحظ هذا الوعي والشعور بأن الملك هو ممثل الإله وبصورة خاصة لدى شلمناصر، فإن توسعه ودخوله المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية قد أدت به أن يفكر أنه هو الراعي الإلهي الذي رفعته الآلهة فوق البشر المتحضرين، ولقد كان يُجبر الآخرين أن يدعوه راعي المجتمع البشري والمستوطنات البشرية، والراعي الصادق، وكان هذا اللقب من ألقابه الفريدة التي استعملها الكثير من خلفائه.

وعلى المستوى الإنساني فإن أنشطة شلمناصر في الحدود الشمالية يبدو انها كانت تضارع اهتماماً جديداً بالمدينة الشمالية العظيمة نينوى، فالنصوص منذ زمن شلمناصر تذكر عن إعادة بناء أحد المعابد هناك بالإضافة إلى معبد يخص آلهة تدعى: آلهة نينوى (أي: عشتار التي يحترمها أهالي نينوى) وقد وجدت هذه النصوص في داخل (العاصمة آشور نفسها).

هذا وقد وجدت أنواع من الألواح المختصة بشؤون العمل في تل (الرماح) على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من نينوى، ويعود تاريخها إلى عهد متأخر من حكم شملناصر أوائل عهد خلافته، وهذا يشهد على وجود تجارة مزدهرة في القطاع الشمالي من آشور بما فيها تجارة القصدير مع بلاد نايري، والأناضول.

وقد سمعنا فيما بعد انه لا شك ولحماية هذه التجارة فإن شلمناصر قد وضع حاميتين في مدينتين على حدود (نايري) ولكن هاتين الحاميتين قد احتلتهما جيوش الآراميين فيما بعد، ومع أن نينوى لم تصبح العاصمة الرسمية لآشور حتى الألف الأول ق.م إلا أن أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بدأت تتفوق على آشور حالما بدأت فترة توسع الدولة الآشورية شمالاً وغرباً، وإن اهتمام شلمناصر بنينوى يعكس هذا الوضع.

توكولتي نينوترا الأول

لقد استمرت عملية توسع آشور المتحركة تحت حكم توكولتي نينوترا الأول (١٢٤٤ – ١٢٠٨) وهو ابن شلمناصر، وكان هذا من الفاتحين الذين يشبههم البعض بنمرود، وأنه كان نسخة عن نمرود، وهو الذي تصفه التوراة في سفر التكوين (١٠/٨) بكونه الصياد القوي، أمام الإله، وهناك حالات مشتركة بين أعمال توكولتي نينوترا الباهرة وأعمال والده وجده، ولا عجب في ذلك ما دام أن المشكلات التي كانت آشور مضطرة لمعالجتها لم تتغير.. ولكن (توكولتي نينوترا) فاق أجداده ليس في النسبة للمسافة فحسب، بل بالنسبة لاستثمار المناطق التي كانت تدور في فلك آشور.

هذا ولقد أصبح اختراق آشور واضحاً للعيان.. ولقد أصبح توكولتي نينوترا صريحاً بالنسبة للأراضي التي غزتها جيوشه خلال المنطقة الواسعة في الجبال الشمالية التي دعاها أرض القوطيين، وتظهر المعلومات التي أوردها أن لديه معرفة أوفى من معرفة أسلافه بالنسبة لتنظيم الشعب في تلك المنطقة، فلقد سمَّى

obeikandi.com

المملكة الرئيسية وحددها باسم (اكوميني أو أكوماني وفيما بعد أصبح اسمها كوماني) واستطاع أن يعرف اسم ملكها.

ولقد عرف أن البنية الاجتماعية في تلك المملكة كانت اتحاداً مفككاً تحت حكم الأمراء، ولكنها كانت متقدمة اجتماعياً نظراً لأنه كان فيها مدن مسوَّرة، وكانت جيوشها حسنة التنظيم، وهذه الحقيقة أدَّت إلى اقتراف سكان الجبال خطأً تكتيكياً، إذ بدلاً من الاعتماد على حرب العصابات في أرضهم الجبلية الصعبة، الأمر الذي كان سوف يقدم لهم فوائد للتفوق على الجيوش الغازية، فقد أشركوا قواهم في معركة محددة، وفي مثل هذه الأمور لم يكونوا أكفاء للقوى الآشورية المدربة، وهكذا أصبح توكولتي نينوترا سيداً لأراضي القوط الواسعة، وقد أسر أمراء آكوميني ونقلهم إلى آشور وأخذ منهم عهداً بالولاء، وبعدها سمح لهم بالعودة إلى بلادهم كأتباع.

وهنا نرى المظهر الاقتصادي للفتوحات الآشورية، وذلك لأن أولئك الأمراء الأتباع المغلوبين كانوا خاضعين لنظام التجنيد وجباية الضرائب الذي في هذه الحالة يعني أن عليهم أن يؤمنوا العمال لقطع الأخشاب وإرسالها إلى آشور، وهكذا بدأ توكولتي نينوترا في استثمار غابات طوروس الشرقية خدمة لمشاريعه العمرانية في آشور، وكان على الأمراء تقديم جزية ثقيلة سنوياً لآشور، وكانت الزيارات المنتظمة من هذا النوع تؤمن القناة التي من خلالها يُؤثر النفوذ الثقافي الآشوري على شعب آكوميني، ونجد أيضاً بعض الموظفين من أكوميني يعملون عمالاً في آشور في ذلك الوقت، مقابل استلام الإعاشة من آشور.

ولقد عمل توكولتي نينوترا على جمع أخبار فتوحاته بالوصف الجغرافي لحدوده، التي كانت عبارة عن نصف دائرة من الجبال والأراضي الجبلية ابتداءً من الزَّاب الأدنى حتى الفرات، وتعتمد التفاسير الدقيقة لهذا الوصف على إثبات شخصية الأماكن المذكورة التي لم تكن خالية من الالتباسات، ولكن إحدى التفاسير الممكنة لحدوده موجودة في الخارطة في الصفحة المقابلة.

وبعد أن أصبح الشمال هادئاً اتجه توكولتي نينوترا الآن إلى جارته الجنوبية وهي بابل، وكانت المصادمات الحدودية الظاهرة السائدة في العلاقات الآشورية البابلية، ولكن ما حدث الآن كان مسألة أشد خطورة تطورت إلى غزوة ناجحة لبابل، ولقد أنشدت قصيدة بطولية للاحتفال بهذا النصر وطبقاً لهذه القصيدة التي تعبر عن وجهة النظر الآشورية، فإن الملك البابلي (كاشتيلياش) هو الذي انتهك حرية السلام وذلك بالإغارة على آشور.

ولكن محب السلام (توكولتي نينوترا) عمل على حل الخصام بصبر عن طريق الوسائل الدبلوماسية حتى أجبرته غطرسة الملك البابلي ولم تترك له خياراً سوى إعلان الحرب، ولقد تبع ذلك غزو ونهب وسلب بابل ومعبدها العظيم، قد عُزل ملك بابل وأصبحت بابل محكومة لمدة سبع سنوات من خلال حكام آشوريين.

وكان لهذه الأحداث أبعاد دينية، فلم تكن بابل بلاداً بربرية يمكن غزوها مثل المناطق الواقعة فيما وراء آشور الشمالية، بل كانت مصدراً ومركزاً حضارياً وكانت العاصمة بابل مزاراً دينياً ذا مرتبة عالية للقداسة، وإذا سلبت بابل في العالم القديم كان مثل سلب الفاتيكان أو القدس في هذه الأيام.

وكان للقصيدة البطولية وظيفة تقديم تبرئة دينية لآشور من التهجم ضد الدين والتقوى، فضلاً عن تغذية الشعور بالفخر لدى الآشوريين بالنصر، فقد عمل توكولتي نينوترا ما قصدت القوى الإلهية منه أن يعمل، وتروي القصيدة كيف أن آلهة بابل بالإضافة إلى الحارس الإلهي مردوك في مقدمتهم قد أشاروا في أول الأمر عن عدم رضاهم عن أعمال ملك بابل كاشتيلياش، وذلك برفض أي إشارات مشجعة لمقاومته توكولتي نينوترا، ولهذا فقد هجرته هذه الآلهة كلياً، وانسحبت من تلك المدن التي كانت تخصهم، وقد تمثل هجر مردوخ لمدينته بابل بأن أخذ ملك آشور تمثال الإله مردوخ ونقله إلى آشور حيث ظل هناك نحو قرن من الزمان على الرغم من استعادة بابل لاستقلالها.

وبشكل تهكمي فإن استيلاء ملك آشور على بابل كان له تأثير طويل الأمد على آشور أكثر من تأثيره على بابل نفسها ، إذ إنه عن طريق هذا الانتصار والاحتكاك الثقافي الواسع فإن آشور أصبحت مفتوحة لتأثير النفوذ البابلي الديني والسياسي، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسرى الذين أخذوا إلى آشور ومن بينهم ملك بابل كان لهم وقع وتأثير مرموق على آشور، إذ إنه وخلال سبع سنوات حدث عصيان في بابل مما سبب حدوث صدمة بالنسبة لملك آشور.

يذكر ملك آشور في نقشين كتبا في نهاية حكمه أنه وفي بداية حكمه جلب إلى آشور (٢٨٨٠٠) أسير حتى من منطقة فيما وراء نهر الفرات (أي: من شمال سورية) وهذا القول محير وذلك لأنه لم يذكر أي خبر من هذا القبيل في أي نقوش من السنوات الأولى، فنحن نعلم من كثير من الرسائل أن ملك آشور وفي بداية حكمه كان يحاول أن يبدأ علاقات سياسية حسنة مع الحثيين، فهل من المعقول أن يكون ملك آشور قد ألغى نقوشه الماضية للحفاظ على حساسية الحثيين، لكن هذا يبدو غير محتمل الوقوع.

إن أي هجوم عام يقوم به ملك آشور على الأراضي الحثية سوف يُسيئ إلى العلاقات. وبغض النظر عن كون ملك آشور قد اختار أن يسجل هذه الحقيقة أو لا ، وعلى كل حال فإن والده شلمناصر في نقوشه يشير إلى ذبح الجيوش الحثية، كانت هذه النقوش موضوعة في آشور بحيث إن المراسلات التي قام بها ملك آشور قلما تسبب الفتور بين الدولتين، ويبدو أن ادعاء ملك آشور بالانتصار على الحثيين لم يكن سوى نوع من المبالغة المؤسسة على غارة بسيطة، وقد قدم هذا الانتصار على الحثيين في نقوشه لتلميع اسمه وصورته عندما ساءت الأمور معه بعد التمرد الناجح الذي حدث في بابل، وهكذا أصبحت كرامته في الميزان فأصبح من الواجب اختراع انتصار ضد قوة عظمى ليقابل تأثيرات حظه العاثر.

وخلال القرون بدل الملوك الآشوريون عواصمهم ومن بينهم توكولتي نينوترا ، ولم يوضح الملوك الذين قاموا بالتبديل أسبابهم، ولكن هناك عاملين بارزين يبدو أنهما عملا في ذلك السبيل في درجات متفاوتة.

obeikandl.com

والأول: كان استراتيجياً، فالعاصمة القديمة ربما كانت لا تصلح بأن تكون مركزاً للدولة في الحالة الراهنة، ولكن هناك عاملاً ثانياً: وهو التوتر الحاصل بين المواطنين والحكومة، ففي المدن القديمة كان المواطنون يتمتعون بحقوق تقليدية بما فيه الإعفاء من بعض أشكال الضرائب فضلاً عن الحقوق المتوارثة على الأرض، فقد كان من الممكن أن تطغى المشاريع العمرانية في العاصمة على حقوق المواطنين تلك، أو ربما كانت احتياجات الدولة الحالية تقنع الملك أن يخفف من الامتيازات الضرائبية للمواطنين، وأن أياً من هذه العوامل سوف يولد الاحتكاك.

وهكذا ولتخفيف مثل هذه الاحتكاكات كان الملك يجد أنه من المرغوب فيه نقل عاصمته، وهذا ما فعله ملك آشور توكولتي نينوترا، فقد بنى في أواخر مدة حكمه عاصمة جديدة هي كار توكولتي نينوترا على الضفة المقابلة لنهر دجلة لآشور، وذلك لكي تستخدم هذه المدينة كمركز لحكومته ابتداء من زمن حملته على بابل حتى نهاية حكمه.

فلقد كانت التوترات خلال دولة آشور هي العامل الرئيسي لبناء العاصمة الجديدة، وقد سبب هذا التوتر إنهاء حكم توكولتي نينوترا وإنهاء حياته أيضاً، وخلال سبع سنوات من تغلب الآشوريين على بابل حدث عصيان هناك سبب إرجاع ملك بابل الشرعي إلى عرشه الموروث من أجداده، وإرجاع استقلال بابل عن آشور، فقد عملت التقاليد الدينية القديمة في الشرق الأدنى على زعزعة حكم توكولتي نينوترا، فقد كان أي عصيان ناجح تهديداً لحكم الملك مستدعياً موافقة الإله على حكم الملك، وكان هذا العصيان خطراً عندما يحدث في بابل نظراً لما تمتعت به بابل وآلهتها من هيبة وكرامة.

وهكذا حدث بالنسبة لملك آشور، إذ إنه وطبقاً لبعض التواريخ لقد تبع استيقاظ بابل لنيل الاستقلال حدوث مؤامرة في القصر في كار توكولتي نينوترا، وتقول هذه النبذة التاريخية:

((لقد عمد ابن توكولتي نينوترا وهو آشور ناصر بعل ونبلاء آشور إلى القيام بعصيان ضد الوالد الذي مدَّ يد الشر على بابل، وأنزلوه عن عرشه وسجنوه في بناء في كارتوكولتي بنينوترا، وقتلوه بواسطة أحد الأسلحة)).

لقد سبب قتل الملك مع تورط أمير من الأمراء في الجريمة بعض التشويش والبلبلة في قضية وراثة العرش، وقد انعكست هذه البلبلة على مصادرنا التاريخية، فالقاتل قد ربح العرش مؤقتاً ولكن ومع أنه فعل هذا فإن ذلك لم يدم طويلاً، لأن الوريث الشرعي المعترف به كان ابناً آخر من أبناء توكولتي نينوترا وهو (آشور نادين أبلي) وإن المدة القصيرة التي حكم بها هذا الابن وثلاثة من خلفائه، فقد حكم الأربعة مدة ثمانية وعشرين عاماً فقط، تشير إلى وجود فترة من عدم الاستقرار نتيجة لذلك التوتر الداخلي الذي انعكس من خلال تلك المؤامرة ضد الملك توكولتي نينوترا.

صمت مرحلة الانحطاط

لقد أحب الملوك الآشوريون تسجيل أعمالهم ومآثرهم ليس لاطلاع البشر عليها بل للتأكد أنهم قد حصلوا على التأييد من الآلهة.

وهكذا فإن حدوث فترة تخلو من النقوش الملكية من المحتمل أن تكون فترة افتقر فيها ملك آشور إلى وجود منجزات كبيرة أثناء حكمه، ونحن الآن ندخل في مثل هذه الفترة، فقد أصبحت النقوش قليلة تعكس العجز الذي ضرب آشور، فنحن لا نعرف شيئاً مهماً عن حكم آشور نادين ابلي سوى أن نهر دجلة قد تغير مجراه، فقد عاد إلى مجراه القديم بفضل الأدعية الملكية للآلهة مع مساعدة المهندسين الآشوريين، ولم يكن هذا أمراً سهلاً، فإن انتقال نهر يعني الحكم بالموت على أي مدينة تعتمد على النهر في مواصلاتها وأساليب الري فيها، وحتى حدوث تغيير طفيف في مجرى النهر ربما أدَّى إلى نتائج خطيرة لاسيما بالنسبة لوسائل الدفاع عن المدينة، إما عن طريق تقويض أسس الأسوار والتسبب في

obeikandi.com

سقوطها، أو عن طريق ترك أجزاء صغيرة من السور كانت تحميها مياه النهر معرضة للانهيار.

والحقيقة أن طوفان المياه كان من الأسباب الأساسية لسقوط آشور نهائياً عندما كانت آخر عاصمة فيها وهي نينوى تحت الحصار عام ٦١٢ ق.م.

وكانت هناك عدة مشكلات تواجه آشور في هذه الفترة المظلمة عدا عن انتقال النهر، فلقد حدثت حركات لبعض الشعوب على مقياس واسع بحراً وبراً في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط مما سبب انهيار الامبراطورية الحثية، وحدوث محاولات استيطانية على طول الشواطئ الشرقية، ولقد كان لهذه الحوادث صدى وآثار تالية على التجارة وطرقها، قد أثرت على آشور بشكل منعكس، بينما أثرت الشعوب المهاجرة تأثيراً مباشراً على ممتلكات آشور الغربية والشمالية، وأصبحت بابل حسب بعض المراسلات بين حكام المملكتين، في حالة ووضع سياسي مكّنها من التدخل في شؤون آشور، وانعكس هذا في قضية وراثة العرش الآشوري، فقد كان الملك الرابع من الملوك الصغار الذين تلوا توكولتي نينوترا واسمه (نينوترا – ابيل – ايكور) بعيداً جداً عن الأسرة الحاكمة بحيث إنه عزا حقه في الوراثة إلى ملك عاش قبل قرنين.

وهكذا أصبح هناك بعض التخلخل في قضية وراثة العرش، وقد أصبحت خلفية هذا الوضع ظاهرة عندما نعلم أن (نينوترا – ابيل – ايكور) حصل على السلطة من إحدى قواعد بابل بعد اصطدام آشوري بابلي، وقد حصل هذا الأمير على السلطة بعد دعم وموافقة بابل.

ولكن وبمرور الزمن فقد خدم هذا التدخل مصالح آشور، إذ أعطى هذا التقارب قاعدة لتجدد الاستقرار الداخلي بحيث إن ابن الملك الجديد وهو آشور – دان الأول (١١٧٩ – ١١٣٤ ق.م) كان حكمه أطول حكم في تاريخ آشور، إذ إن ندرة وجود النقوش توحي أن آشور كانت على طريق التوحد بهدوء، دون حدوث أي مغامرات سياسية وعسكرية.

وقد ذكر عن تصادم حدودي بين آشور وبابل ولكن هذا لم يكن أكثر من حادث عارض موضعي ولم يكن يعني أي اعتداء من قبل إحدى المملكتين.

والحقيقة أنه ونحو منتصف القرن العشرين لم تكن آشور ولا بابل هي التي سيطرت على الحوادث في منطقة ما بين النهرين، بل وجدت قوة ثالثة وهي عيلام في جنوب غرب إيران (خوزستان) فكانت هذه المنطقة ابتداء من الألف الثالث حتى يومنا هذا ذات تورطات قليلة من حين لآخر مع الثقافة والتاريخ في منطقة ما بين النهرين، وقد انعكست هذه الروابط الثقافية في التوراة التي تقول: إن عيلام كان أخا آشور (سفر الخروج ١٠ – ٢٢). مع أنه بالنسبة للغة كانت لغة عيلام مختلفة عن لغة بابل وآشور.

وفي أوائل حكم آشور – دان عندما حدثت بعض الاضطرابات في بابل حاولت عيلام التوسع إلى جنوب ما بين النهرين، فقد غزا أحد حكام عيلام بابل في القرن الثالث عشر، وتصادم هناك مع توكولتي – نينوترا ولكن التوسع العيلامي في القرن الثاني عشر كان قضية طويلة الأمد، فقد هاجم العيلاميون المنطقة المحاذية لنهر ديالا – حيث كان هناك طرق تجارية مهمة ووصلوا إلى بابل نفسها عام ١١٦٠ ق.م، وهكذا انتهت سلالة الملوك الكاشيين القديمة وظل قسم كبير من منطقة شمال شرق بابل تحت الحكم العيلامي نحو ثلاثين عاماً حتى أصبح حكم بابل عبئاً على موارد العيلاميين، ولقد أثر هذا على آشور هامشياً عندما امتدت سيطرة العيلاميين شمالاً تجاه الزاب الأدنى في منطقة حدودية كانت معرَّضة للخصومات ما بين بابل وآشور، ونتج عن ذلك تأكيد أهمية آشور استراتيجياً واقتصادياً في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من الزاب الأدنى.

في منطقة الشرق الأدنى القديمة كانت الفرصة الرئيسية لظهور تأثير الرأي العام الشعبي عند موت أحد الملوك، إذ إنه كانت تحدث اضطرابات عند موت أحد الملوك لاسيما إذا كان حكمه طويلاً، تصل إلى حد التمرد.

obeikandi.com

وكان الأمراء المتنافسون يضعون أنفسم على رأس الفئات المتنافسة، وقد حدث هذا عند موت آشور – دان، عندما اختصم ولداه الذي كانت بابل تؤيد أحدهما، فقد حكم أحدهما وطرد وأما الثاني فمن المحتمل أنه قتل.

هذا وقد عادت الحالة السوية الاعتيادية إلى آشور عند حكم آشور - ريسن - ابشي الأول (١١٣٣ – ١١١٦) ق.م ولكن الحالة الطبيعية الاقتصادية لم تُفقد أبداً، ويمكن أن نستنتج ذلك من نصوص ترجع إلى هذه الفترة تذكر وتسجل وصول بعض الأغنام والمواشي إلى البلاط الملكي من بعض الموظفين المختلفين، وإعطاء الترتيبات المفضلة بالنسبة لتوزيع هذه المواشي في العاصمة، وأما الإنتاج الزراعي والأعمال الرتيبة لشبكة الإدارة الآشورية فقد استمرت ولم تقاطعها سوى بعض المصادمات في الخارج أو النزاعات للحصول على السلطة في الداخل.

openkandl.com